

لا تتركني وحيدة..

كانت شمس طيبة عام ١٩٢٧ تحرق الجبل الغربي كأنها تُذيب الزمن نفسه.
بعد ساعات طويلة من البحث بين الصخور والرمال، كانت الدكتورة البريطانية " دوروثي إيدي " تتجول وحدها، وكأن قدميها تعرفان الطريق قبل عينيها... لم تكن تشعر أنها غريبة، بل كانت تمشي في بيتها "مصر"، وتستنشق هواءها وكأنها تستعيد أنفاساً فُقدت منها منذ أزمنة بعيدة.
كان صدرها يقبض بانقباض غريب، حين لم تعرفه من قبل، كأن روحها تتذكر بيتاً قديماً تركته منذ آلاف السنين.
فجأة، لفت نظرها نحت غائر في الصخر، ملامحه تكاد تذوب تحت وطأة العصور. اقتربت بخطى مترددة، ومدت يدها المرتجفة.
نفضت الغبار برفق، كأنها تخشى أن توقظ شيئاً نائماً.
وهناك... في فجوة سرية خلف النتوء الصخري، كانت تنتظرها لفافة بردي هشة، كأنها حُفظت لها هي وحدها. ما إن لمست أصابعها سطح البردي حتى سرت في جسدها برودة مفاجئة، حادة، كأن يداً من الماضي قد أمسكت بقلبها.
واهتز الهواء حولها، وسمعت صرخة قديمة تدوي في أعماقها.. صرخة تعرفها، صرخة كانت تنتظرها منذ زمن.
فتحت اللفافة بيدين مرتجفتين، وقرأت الكلمات التي كُتبت بِحَطِّ تكاد تقسم أنها تعرفه:
"لقد صنعتُ لك قلباً من صخر الجبل .. حتى لا تظل وحيدة".
أغمضت دوروثي عينيها. فانسحب الزمن من تحت قدميها كالرمال المتساقطة. تلاشت أصوات القرن العشرين، ووجدت نفسها فجأة هناك.. حيث بدأ كل شيء.

عند ضفاف النيل الخالد، في ظلال جبل القرنة الشامخ في غرب طيبة، وقف سن-موت يرقب تدفق الماء بصمت ثقيل... مد يده إلى صخرة مبللة برذاذ النهر، فارتجف.

كانت البرودة نفسها.. برودة دمعنها الأخيرة التي سقطت على كفه يوم رحيلها. أغلق عينيه، وعاد إليه كل شيء بقوة مؤلمة.

تذكّر ها...

كانت تقف فوق الجبل الغربي في أول أيام زفافهما، ضحكتها الندية تملأ الوادي كأن الريح نفسها تتراقص مع خصلات شعرها.

كانت عيناها مليئتين بدلال طاعٍ وحب جريء، وهي تميل بجسدها النحيل نحو زهرة برية نادرة نبتت بين الشقوق. نظرت إليه، وهمست بصوت يذوب القلب... أتحبُّ... لكنها لم تكمل.

خطوة واحدة.. خطوة لم تكن في مكانها.

تحرك الحجر الرخو تحت قدمها، وتحولت الضحكة والكلمة إلى صرخة مدوية اخترقت صمت الوادي كالسيف.

اندفع سن-موت يركض نحوها، يصرخ باسمها، يمد يديه في الهواء المحترق. أمسك طرف ثوبها الكتاني للحظة.. شعر بلمس القماش ينزلق ببطء مؤلم من بين أصابعه، كأن الحياة نفسها تتسرب من يده.

حاول الإمساك بها بكل ما أوتي من قوة، لكن الجاذبية كانت أقسى من حبه، وأسرع من رجائه. سقطت أمام عينيه.

ركض خلفها في الدروب الوعرة، يتعثّر ويسقط ويقوم، والدم يسيل من ركبتيه دون أن يشعر. عندما وصل إليها... كان جسدها قد بدأ يبرد...

حمله بين ذراعيه بياسٍ مُر... يضغطها على صدره كأنه يريد أن يعيد روحها إلى جسدها بنبضات قلبه المكسور. نظرت إليه.. النظرة الأخيرة.

عيناها كانتا تكافحان الموت بوهج خافت... فيهما حبٌّ هائل، وعتاب رحيم، وخوف طفولي من الظلام القادم. رفعت يدها بصعوبة بالغة، مررت أصابعها على خده المُغبر، وسالت دمعنها الساخنة ثم بردت فوراً

على كفه. همست بصوت مكسور، يحمل كل آلام الدنيا:

"لا تتركني وحيدة"

تلك الكلمات حفرت في روحه إلى الأبد.

غاب سن-موت في صمت أسود.

وقطع صلته بالعالم، واعتزل في مشغل حجري صغير بناه بيديه عند قاعدة الجبل، تماماً في المكان الذي شهد سقوطها. كان يعمل ليلاً ونهاراً، جسده العاري يلمع بعرق الجهد وغبار الحجر الأبيض.

كل ضربة إزميل كانت صرخة مكتومة، كل مسحة كانت دمعة لا تسقط.

كان يخاف... يخاف أن يتوقف... فيتلاشى وجهها، وتبقى هي وحيدة في الظلام الأبدي.

لذلك لم يتوقف.

حوّل الأرض الجدياء حوله إلى بستان خضراء. حفر قنوات ليجلب ماء النيل، زرع النخيل والزهور النادرة التي كانت تحبها.

صنع موائد لا تنقطع للغرباء والفقراء. كلما أطمع جائعاً، كان يرى ابتسامتها في وجهه. كلما سقى عطشانياً، كان يسمع ضحكتها في صوت الماء.

وبعد عشرين عاماً من العذاب والأمل، جثا أمام التمثال الذي أصبح يشبهها تماماً. وضع بين يديها الحجريتين قلباً من خزف أحمر صنعه بيديه، قلباً يبدو وكأنه ينبض.

نظر إليها طويلاً، ثم همس بصوت مكسور

لكنه هادئ أخيراً:

لن تظلي وحيدة أبداً.. فكل روح تأتي إلى هنا ستكون جليستك. وكل دمعة تُسكب هنا ستكون دمعتي معك... وكل نبضة حب ستكون نبضي إلى جانبك.

فتحت الدكتوراة دوروثي عينيها والدموع

تنهمر على وجنتيها بغزارة. رفعت يدها ببطء، ولمست خدها.. كانت لا تزال تشعر بدفء

أصابعه عليه بعد آلاف السنين. نظرت إلى الجبل الغربي بابتسامة هادئة عميقة، ابتسامة من عرف أخيراً أنه لم يكن وحيداً يوماً.

لقد وفي سن-موت بوعدده.

فلم تكن وحيدة.. أبداً.

بقلم اسامة ابراهيم

[رؤى كَاتِب] الإسكندرية / (أبريل ٢٠٢٦) جميع الحقوق الأدبية محفوظة ©